مباحث لغوية

صبحي البصام

ورد في كتابي المخطوط (إصلاح كتاب الحيوان) مباحث لغوية. وقد اخترت منها ههنا طائفة مهمة للنشر، عسى أن يستفيد منها القرّاء ولا سيّما المعنيين باللغة. ومؤلف كتاب الحيوان هو الجاحظ، ومحققه هو الأستاذ عبد السلام هارون. وكلّ مبحث سيكون في أوله اسم الكتاب ورقم جزئه وصفحته:

(١) هو محمد أبو الحارث جُمَّيز

الحيوان (٨٤/٣): ورد (أبو الحارث جُمَّين) بالنون من (جُمَّين) فقال الأستاذ المحقق إن صاحب القاموس يرى أن (جُمّين) خطأ وأن الصواب (جُمّيز) بالزاي، وإنه استشهد ببيت شعر لأبي بكر بن مقسم، وسيأتي ذكره. والمحققُ، على ما قدّمه لنا، أبقى (جُمّين) بالنون في متن الكتاب ولم يُصلحها. وفي (١٩٢/٥) ورد (جُمّيز) بالزاي فأبقاه على حاله وقال: (يبدو لي أنهما لغتان في اسمه). هكذا، أي يجوز (جُمّين) و(جُمّيز). وعندي أن الصواب (جُمّيز) بالزاي، أما (جُمّين) بالنون فتحريف، وذلك لما هو آتٍ:

١) قال الفيروزآبادي في القاموس (ج م ن): (وأبو الحارث جُمين كقُبّيط المديني ضبطه المحدثون بالنون والصواب بالزاي المعجمة. أنشد أبو بكر بن مُقسم:

إنّ أبـــا الحـــارث جُميـــزا قـــد أوتـــيَ الحكمـــةَ والمَيـــزا)

وقول الفيروزآبادي وما أنشده أبو بكر مقسم كافيان في إصلاح الاسم.

٢) ورد (أبو الحارث جُمَّيز) بالزاي في عيون الأخبار مرتين. مرّةً في ٢٦٩/٣ في خبر له مع يحيى بن خالد البرمكي. ومرة في ٢٢٩/٣. وهذا دليل على أن المؤلف وهو ابن قتيبة، وكان معاصراً للجاحظ، كذلك عرف اسمه. وكذلك عرفه الجاحظ كما في ١٩٢/٥ من كتابه الحيوان، وكذلك عرفه ابن أبي عون في كتابه التشبيهات ٩١. وهذا المؤلف يروي عن ثعلب والمبرّد.

٣) إنّ (جُمّين) بالنون لا معنى له، أما (جُمّيز) بالزاي فله معنى. وهو كما في القاموس: التين الذكر وهو حلو. وقال فيه ابن البيطار في الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ١٦٦/١ (ينبت على ساق شجرة شبيهة بشجرة التين. ويثمر ثلاث مرات أو أربعاً في السنة. وهو يُشبه التين البرّي وأحلى من الفج). وإذا سُمّي إنسان باسم أو لقّب بلقب فالأعم الأغلب أن يكون له معنى.

٤) ترسم الزاي والراء أحياناً في آخر الكلمة في بعض الخطوط كالنون. وهذا هو السبب في تحريف (جُمّيز) إلى (جُمين). مَثَل ذلك ما جاء في تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر. في الجزء الخاص بعثمان رضي الله عنه٤٨٠ – وهو أن مُطَرِّقاً قال: (لقيت علياً بالحزين) بالنون، وهو قول نقله ابن عساكر من بعض الكتب، فلما فرغ من النقل نبّه على أنّ (بالحزين) بالنون محرّفة عن (بالحزيز) بالزاي، مع توضيح منه وتبيين. وسألني بعض طلبة الدكتوراه في جامعة لندن ونحن في بعض خزائن كتبها (وهي: سْوَاسْ SOAS)، وهو يشير بأصبعه إلى جلد كتاب عربي في يده: كيف تقرأ اسم والد هذا المؤلف؟ بدين بالنون؟ وكان الخطاط خطّ الراء كالنون وزيّن أحرف الاسم بنقوش دقيقة كثيرة قد تضيع على القارئ تمييز نقط الأحرف. فقلت له: لا بل هو (بُدَير) بالراء تصغير (بدر). وفي كتاب الأوائل لأبي هلال العسكري (ق٧٦/١. طبعه وزارة الثقافة والإرشاد القومي ١٩٧٥) ورد (أبو الحارث حمير) بالحاء والراء المهملين من (حمير) مع تنبيه

الأستاذ المحقق بأنه في المطبوع (حمير) بالحاء والدال المهملين. ووجدت في كتاب الوزراء والكتّاب للجهشياري ٢٤٢ أن الزاي صُحِّف الى راء من (جمّيز)، وضبط بالشكل هكذا (حُمَير) دون تشديد للميم. وذكر المؤلف اسمه، وهو محمد، وكنيته وهي أبو الحارث. ولم أر أحداً يذكر اسمه غير الجهشياري.

إن الغلط في اسم هذا الرجل لا يكاد ينتهي، فمن شاء حفظ ان شاء الله قول أبي بكر بن مُقسم فيه وهو كما في القاموس:

إنّ أبـــا الحـــارث جُمّيـــزا قـــد أوتـــي الحكمـــةَ والمَيـــزا

وحفظ اسمه، وهو (محمد)، كما ذكره الجهشياري في كتابه المذكور آنفاً.

(٢) قول في أصحاب الاستخراج

الحيوان (٤/٤٣٠): جاء في ذكر من يلازمهم الفقر لاختصاصهم بالقتل والتعذيب: (... ومن يضرب الأعناق بين يدي الملوك، وكذلك أصحاب الاستخراج والعذاب). وقال الأستاذ المحقق: (الاستخراج: كذا جاء ولم أجد له تفسيراً معيناً). قلت: أصحاب الاستخراج هم من كانوا يوكل إليهم تعذيب من يخون مال الدولة، ومن يُراد أن يُستصفى ماله لذلك أو لأي سبب آخر. والقصد من التعذيب استخراج ما قد يكون مخبّأ من مال المعذَّب. وكان للتعذيب دور خاصة به. ففي العقد الفريد (٢/١٦١) أن والي خراسان أسد بن عبد الله القسري مرّ (بدار من دور الاستخراج ودهقان يُعذَّب في حبسه). ومما قال له الدهقان: (يا أسد احذر من ليس له ناصر إلا الله، واتق من لا جُنّة له إلا الابتهال اليك) – هكذا في الكتاب (اليك) وأراها تحريف (إليه) أي إلى الله – فأمر أسد بالكف عنه. وفي أنساب الأشراف (ق ٣/١٤٣) أن والي الكوفة ولّى نفراً أعمالاً فخانوا وكسروا الخراج، فغضب الوالي

عليهم، وجاء فيهم: (فأمر بهم عيسى البطينَ صاحب استخراجه، فحُبسوا وعُذّبوا). وقال أحدهم وهو مساور الورّاق:

رأيتُ نواهض البقال خيراً ... من الشبّوط والجدي السمين
وأحمدَ في العواقب حين تُبلى ... إذا كان المَرَدّ إلى البطينِ

والخبر مذكور أيضاً في الأغاني (١٤٩/١٨). وربما أفضى التعذيب إلى الموت. جاء في (نقد العلم والعلماء أو تلبيس إبليس ١٤٢) لابن الجوزي أنّ والياً كتب إلى عمر بن عبد العزيز أنّ قوماً خانوا مال الله وأنه لا يقدر على استخلاص ما في أيديهم إلاّ بأن يعذبهم. فكتب إليه عمر: (لأَنْ يلقوا الله بخيانتهم أحب إليّ من أن ألقاه بدمائهم). وفي يتيمة الدهر (٧٠/٢) أن أبا إسحاق الصابي وكّل به مستخرج مال لتعذيبه، إلا أنه كان يرفق به، فقال فيه أبياتاً منها:

وله خلال العسف رفق ربما ... يغشى الضعيفَ الرازحَ الحيرانا
مستخرج للمال مضطر إلى ... استعمال ما يُرضي به السلطانا
متوعّر الجنبات في استخراجه ... وإذا تُعُطّف للفتوة لانا
فتراه في ديوانه مستأسداً ... ليثاً وفي خَلَواته إنسانا

وقول الصابي (في ديوانه) أي في ديوان الاستخراج. فلمكان الاستخراج اسمان (ديوان الاستخراج) المستدل عليه من شعر الصابي، و (دار الاستخراج). المذكور في خبر الدهقان. و(دار الاستخراج) أفضل لاستعمالها في النثر وهي كاملة الألفاظ، ولأنها أقرب إلى ما يكون فيها من تعذيب من الديوان. و(مستخرج) الأصل فيه (مستخرج مال) بدلالة خبر الصابي الذي فيه (وُكّل به مستخرج مال لتعذيبه) وبدلالة قول الصابي:

مستخرجٌ للمال مضطرّ إلى استعمال ما يُرضي به السلطانا

ويغلب عليه الاختصار فيقال (مستخرج). وكان المستخرج مكروها، يبدو على وجهه العبوس، لذلك قال الخوارزمي في بعض رسائله يذم بعضهم: (يا وجه المستخرج يوم السبت، يا إفطار الصائم على الخبز البحت، يا جُشاء من أكل فُجليّة، وفُساء من أكل قنّبيطية) (رسائل الخوارزمي ١٩٩)، فقَرَن صورة وجه المستخرج يوم السبت بإفطار الصائم على الخبز وحده، وبجشاء آكل الطعام الذي قوامه الفجل، وبفساء آكل الطعام المصنوع من القنّبيط. وذكر الخوارزمي لوجه المستخرج يوم السبت يدل على أن يوم الجمعة كان خالياً من التعذيب لحُرمته.

وأقدّم قولي هذا في (الاستخراج) إلى صانعي المعاجم، لأن كتب اللغة خالية مما بيّنت فيه ونبّهت عليه.

(٣) قول في الشبّوط

الحيوان (٣٦٩/٥) قال الأستاذ المحقق في الشبّوط (سمك دقيق الذنب عريض الوسط صغير الرأس يكثر في دجلة CARP). وهذه صفة لا تصلح للشبوط، وهي خطأ، والأصل فيه كتاب العين، ففيه (٢٣٩/٦ شبط): (شبوط ضرب من السمك طويل الذنب دقيقه، عريض الوسط، ليّن الممس، يشبه البربط)، وفي تتمة هذا النص: (كلمة عراقية، وإنما يشبه البربط إذا كان ذا طول ليس يعرض كالشبوط). ولا صواب فيها الا (كلمة عراقية) وباقيها قول يعوزه الصواب. ولا شك أنها حاشية على بعض مخطوطات العين فأدخلها الناسخ في المتن، ولم يلتفت الى ذلك محققا الكتاب الدكتور مهدي المخزومي والدكتور ابراهيم السامرائي. أما (كلمة عراقية) الواردة في الحاشية في شبوط فأقول فيها: أرى أنّ (شبّوط) من (شبَّ) و (لَبَطَ)، وذلك عمله إذا صيد دون سائر السمك الذي يعيش معه، وهو (شبوط) للمبالغة،

نحو (قيّوم) و(عبّود). ثم انتقل وصف كتاب العين للشبوط إلى سائر المعاجم فارتكبت الخطأ نفسه. وأيضاً انتقل إلى كتاب (حياة الحيوان – شبوط) للدميري فقال فيه: (هو دقيق الذنب عريض الوسط لين المسّ صغير الرأس). والصواب أن الشبوط طوله نحو ذراع وعرضه نحو أربع أصابع مصفوفة. وهو رشيق القد، ورأسه متوسط الحجم توسطاً يوافق طوله وعرضه، ومن قال هو عريض الوسط فقد أخطأ. ومن قال بطول ذنبه ودقته فقد أخطأ أيضاً. وهذا ما نعرفه في وطننا العراق ولا سيما بغداد. وقد اشتريناه. أنا ومحقق كتاب العين صديقي الدكتور إبراهيم السامرائي غير مرة أيام كنا من طَلَبة العلم بدار المعلمين العالية ببغداد، وكان البائع يشويه لنا فنأكله، فلا أدري كيف غفل عن الغلط في صفة الشبوط في كتاب العين. أما السمك الذي وصفه كتاب العين متوهماً أنه شبوط وتابعته في ذلك المعاجم وغيرها فلا يعيش بدجلة بل يعيش في البحر، ولكنه يدخل في الصيف دجلة البصرة العظمى – التي يقال لها الآن شط العرب – ليضع بيضه فيُصاد في البصرة. وتنقله سيارات الحمل وهو بين الثلج إلى بغداد ليباع فيها. وأهل بغداد يقولون له (زُبَيْدِي) بإسكان الزاي، وكأني بهم يعنون بهذه التسمية أن طعمه حين يُقَلى يكون كالزبد، وهو كذلك حقاً. على انه إذا طُبخ في القدر كان غير سائغ. وهو يُباع عندنا في شفيلد ويقال PLIACE وطعمه دون العراقي جودة. وان أخطأت المعاجم في صفة الشبوط فقد وصفه القزويني على الصواب في (عجائب المخلوقات ج ١– القول في حيوان الماء – شبوط)، قال: (الشبوط نوع من السمك مشهور، طوله ذراع، وعرضه أربع أصابع، طيّب اللحم جداً. يكثر منه بدجلة. وذكر بعض الصيادين أن الشبوط ينتهي الى الشبكة فلا يستطيع الخروج منها، فيعلم أنه لا ينجيه إلا الوثوب. فيتأخر قاب رمح يُقبل جامزاً بجراميزه فيخترق الشبكة ويخرج منها). وخرقه الشبكة مبالغة إلا أن يكون طال عليها العمر وفشا فيها الوهي. أما طيب لحمه فصحيح ولكنه يكون تافه الطعم إذا صيد ورُبط وتُرك

في النهر عدة ساعات بانتظار من يفضل شراءه حيّاً، لأنه عندئذ يلبط لبطاً شديداً، ويشب شباً عالياً ويجرّ الحبل الذي يربطه بشدة، طلباً للخلاص من الأسر، فيحيف ذلك كله على لحمه فيجعله تافه الطعم، وتركه بخارج الماء ليموت في نحو ساعة أولى. وما أفادناه القزويني عن الصياد من وثوب الشبوط وهو في الشبكة سبق أن ذكره الجاحظ في (٤٠/٧)، ولكنه لم يشر إلى اختراقه الشبكة. وقال فيه الدميري (حياة الحيوان ٤٣/٢): (ولحمه كثير جداً) هكذا، وأراه خطأ من الناسخ والصواب (ولحمه طيب جداً) كما قال القزويني. وأنا أؤيد رأي إياس بن معاوية وغيره في أن الشبوط ولد الزجر من البني، أي أنه كما قلتُ في المادة ٣٤ (١٤٩/١) كالبغل ولد الفرس من الحمار، وكالعسبار ولد الضبع من الذئب، وكالديسم ولد الكلبة من الذئب، وذلك لقلّة بيض أنثاه أو ندرته، ولغرابة أطواره، ولما ذكره الجاحظ في (١٤٩/١) من أنّ أم جعفر بنت جعفر بن المنصور حصرت في حوض كبير عدداً كثيراً من الزجر والبني وأنها لم تخلط بهما غيرهما فتولدت منهما الشبابيط. و(الزجر) لا يقول له العراقيون الآن إلاّ (كطّان). وذكر ابن البيطار في الجامع لمفردات الأدوية والأغذية (٥٤/٣ شبوط (أن مرارة الشبوط تستعمل في أدوية العين، ولكنه وهم في قوله (وهو كثير بالفرات)، وإنما كثرته بدجلة. وقد سكنت نحو سنة ونصف السنة قرب الفرات، واشتريت من سمكه، وسمكه قليل الإضافة إلى دجلة، فما وجدت فيه شبوطاً يُباع. واختم قولي في الشبوط بأن الشائع بين قسم من صيادي السمك بالشص أن الشبوط يحب أن يأكل رجيع الإنسان دون سائر أصناف السمك، لذلك يخلطون مع عجين الشص الرجيعَ بغية صيده.

(٤) قول في قدير وقديد

الحيوان (٤٥٨/٦): جاء في إعطاء بعضهم الشيء اليسير للحوّاء: (فإن شاء أكل الأفعى نيّاً، وان شاء شواءً، وان شاء قديداً). وسكت الأستاذ المحقق عن (قديداً) بدالين، وأراها تحريف (قديراً) بدال وراء أي مطبوخة في القدر. أما القديد فاللحم المقدّد المنشور في الهواء الطلق أياماً حتى يجف. ومضمون النص المذكور آنفاً لا يصلح له (القديد). وكثر التحريف بين (قديد) و (قدير) في الكتب، وربما حرف أحدها إلى (ثريد).

أ) من ذلك ما جاء في ديوان الفرزدق في المدح (١٨/٢ طبعة صادر):

جمع الشواء مع القديد لقومه كَرَما ويثني بالسُّلاف القرقفِ

وقال محقق الديوان المجهول (القديد: اللحم المقدّد). قلتُ: لا يُمدح العربي بأنه يُطعم ضيفه القديد. وإنما القديد في البيت تحريف القدير بالراء. وفي معجم الأمثال للميداني (٢٥٢/١) جاء في قولهم (شريف قوم يُطعم القديد): (ويقال إن القديد شرّ الأطعمة. والرجل الشريف لا يُقدّد اللحم وهذا الشريف يقدّد، يضرب لمن يظهر السخاء ولا يُرى منه إلا قليل خير.)

ب) ومن هذا التحريف ما جاء في قول بعضهم يهجو (عيون الأخبار ١٩٦/٣):

طرقتُ أناساً على غِرّةٍ فذُقت من العيش جهد البلاء
فأما القديد وأشباهه فذاك مفاتيحه في السماء

و (القديد) في البيت الثاني تحريف (القدير). و (القدير) عالي المنزلة بالإضافة إلى (القديد). وشتان ما لحم يابس قديم ولحم طري حديث. لذلك قال الشاعر: (فذاك مفاتيحه في السماء) أي يعز الحصول عليه من هؤلاء الأُناس.

ج) وأيضاً من هذا التحريف ما غنته بعضهن [تاج العروس – شرف. الطبعة القديمة، ولا علم لي بما في الطبعة الحديثة]:

وعجّلْ من أطايبها لشَرْب طعاماً من قديد أو شواءِ

و(قديد) تحريف (قدير). والمخاطب في البيت كما في انساب الأشراف ق٣ هو حمزة بن عبدالمطلب رضي الله عنه. والمغنية تحضه فيه على أن يُهيّئ للشَّرْب طعاماً من ناقة نحرها[1]. ولكن ناسخ تاج العروس أو طبّاعه حرّف (قدير) إلى (قديد) فأخلّ بالمعنى. ولا يصحّ أن ينتظر الشَّربُ أياماً حتى يجفّ قديد الناقة المزعوم ليأكلوه. وعجز البيت في أنساب الأشراف (كرامٍ من طبيخ أو شواءِ). وكان ذلك قبل النهي عن شرب الخمر.

د) وقد يحرّف (ثريد) إلى (قديد): ففي صحيح البخاري سبعة أحاديث في دعوة إلى طعام مع اختلاف في بعض الألفاظ، وبعض أسماء الرواة، وليس فيها حديث نبوي. ويبدو لي أن الأصل فيها هو الحديث ٢٠٩٢ ونصّه (... عن إسحاق بن عبدالله بن أبي طلحة أنه سمع أنس بن مالك رضي الله عنه يقول: إنّ خيّاطاً دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم لطعام صنعه. قال أنس بن مالك رضي الله عنه: فذهبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ذلك الطعام. فقرَّب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم خبزاً ومرقاً فيه دُبّاء وقديد. فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم يتتبع الدُبّاء من حوالي القصعة. قال: فلم أزل أحبّ الدُبّاء من يومئذ). ووردت (قديد) في ثلاثة أحاديث من الأحاديث السبعة. وجاء في حديث منها وهو برقم ٥٤٢٠ (... فقدّم اليه قصعة فيها ثريد) هكذا وأرى أن الأصل (فيها دُبّاء وثريد)

---

(1) قلتُ: لم ينحر حمزة رضي الله عنه كما في أنساب الأشراف ناقة واحدة بل ناقتين كما أفاد البخاري في صحيحه.

بدلالة ما يليه وهو (فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يتتبّع الدُبّاء). ولم يرد في الأحاديث الثلاثة الباقية (قديد) ولا (ثريد) بل وردت الدُبّاء وحدها. وأستبعد أن تكون الدبّاء – وهي القَرْع PUMPKIN– طُبخت بقديد؛ لأن القديد وليس معه إلاّ الدُبّاء ليس مما يُقدّم إلى الرسول صلى الله عليه وسلم في دعوة خاصة به[1]. وعندئذ يكون اللحم النيئ المطبوخ مع الدُبّاء سكت عنه أنس لأنه مما يُتوقّع وجوده، ولأن أكثر قصده مما حدّث به أن يقول (فلم أزل أحب الدُبّاء من يومئذ) لرؤيته الرسول (يتتبّع الدُبّاء من حوالي القصعة). وأُرجّح ما قدّمتُ أن (قديد) الواردة في ثلاثة أحاديث هي تحريف (ثريد). ويقوّي ترجيحي هذا حديث رواه ابن ماجه في سننه وهو برقم ٣٣٠٣ ونصه: (عن أنس قال: بعثتْ معي أم سُليم بمكتل فيه رطب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم أجده. وخرج قريباً إلى مولى له دعاه فصنع له طعاماً فأتيته وهو يأكل. قال: فدعاني لآكل معه. قال: وصنع ثريده بلحم وقَرْع. قال: فإذا هو يعجبه القرْع. قال: فجعلت أجمعه فأدنيه منه. فلما طعمنا منه رجع إلى منزله، ووضعت المكتل بين يديه، فجعل يأكل ويقسم حتى فرغ من آخره). فهذا حديث يُذكر فيه الثريد واللحم دون القديد، فهو حديث وافٍ وشافٍ، يوضح ما غمض، ويحلّ ما أشكل، وأستبعد، أن يكون (قديد) في صحيح البخاري تحريف (قدير)؛ لأن الأغلب في قدير أن يُذكر معه لون آخر في إعداده للأكل، أو نوع آخر من اللحم أو أكثر، وذلك كما تقدم في أول البحث من قول للجاحظ في (٤٥٨/٦) وقول المغنيّة لحمزة رضي الله عنه، وكما هو آت في قول لكشاجم وآخر لامرئ القيس في المادة (هـ). ونحن نقول مثلاً: طبخت الباذنجان مع اللحم، أو مع لحم الغنم، ولا نقول: طبخته مع قدير.

---

(١) نحن في العراق نطبخها بلحم الغنم السمين واللوز المقشور والسكر ونأكلها مع الأرز.

(هـ) وفي كتاب العين (ق د ر) جاء في قدير (ما طُبخ من اللحم بتوابل فإن لم يكن بتوابل فهو طبيخ). ونقلت منه المعاجم هذا القول. وأرى أن القدير والطبيخ بمعنى واحد. وهو ما طُبخ في القدر سواء أضيف إليه توابل أم لم تُضَف، لأني أبحث منذ عشرات سنين في منثور العرب ومنظومهم لعلي أجد ما يدل على فرق بينهما فلا أجده، ولأني لست موقناً أن الخليل الفراهيدي قال ذلك في كتاب العين، وفي هذا الكتاب مناكير كثيرة لا تصح نسبتها إليه، وكنت نبّهت على قسم من ذلك في هذه المجلة، وارى أن الأغلب أن يقال (قدير) لتمييزه من (قدير) أو (مشوي) أو (مقلي). ومن هذا التمييز قول كشاجم وقد ذكر مجلس خمر:

من القدير ومن القديدِ وعامر الطاجن والسفّودِ

فهو أراد أن يذكر لحومهم مع وسيلة إعدادها للأكل، فكانت الذي يطبخ في القدر، والذي يُقلى بالطاجن والذي يُشوى بالسفّود والذي هو قديد، وأيضاً من هذا التمييز قول امرئ القيس:

فظلّ طُهاة اللحم ما بين منضجٍ صفيف شواء أو قديرٍ مُعجَّل

وأُعيد ذكر شاهدين، وفي الإعادة إفادة، أحدهما قول المغنية لحمزة رضي الله عنه:

وعجّلْ من أطايبها لشَرْبٍ طعاماً من قديرٍ أو شواءِ

وقول الجاحظ كما في الحيوان (٤٥٨/٦): (فإن شاء أكل الأفعى نيّاً وأن شاء شواءً، وأن شاء قديراً). وقد أصلحت التحريف الواقع في الشاهدين الأخيرين.

(و) وأعلق على قول الميداني المقدّم ذكره وفيه (الرجل الشريف لا يقدّد اللحم) فأقول : القديد قد يستعمله الأشراف اضطراراً، كأن يكونوا في سفر بعيد. وقد كان الزبير بن العوّام رضي الله عنه يتزوّد قديد الظباء وهو مُحرم (الموطأ ٣٠/٢) وإذا قدَّم منه لأحد لم يكن في ذلك عليه مغمز ولا ذم.

(٦) التقارب بين الضاد والدال في النطق

الحيوان (١٧٦/٣): (والحمامة ربما احتبس البيض في جوفها بعد الوقت لأمور تعرض لها). وقال الأستاذ المحقق في (بعد الوقت) : أي بعد الوقت المقدّر لنزوله) هكذا، وعندي أن (بعد الوقت) فيه (بعد) تحريف (بعض) وأن الأصل في قول الجاحظ (وربما احتبس البيض في جوفها بعض الوقت). والضاد إذا لفظ على الوجه الصحيح كان كأنه دال مفخّم. لذلك قد يتوهم الناسخ حين يسمع الدال أو الضاد من المملي عليه فيُحل أحدهما محل الآخر. وللتقارب بين هذين الحرفين أبدل العرب بينهما في بعض الكلمات نحو قولهم (فاض) بمعنى مات وقولهم في المعنى نفسه (فاد)، قال أبو دواد الإيادي (الشعر والشعراء ١٢٢):

من رجال من الأقارب فادوا من حُذاق هم الرءوس الخطامُ

ونحو قولهم (نبض العرق) أي ضرب وقولهم في المعنى نفسه (نَبَدَ). قال أبو علي القالي: (ويُقال نبض العِرق ينبض ونبَدَ ينبد إذا ضرب) (الأمالي ١٧٨/٢ – ١٩٨؟). ويُقال (مُعَربد) ولكن أكثر أهل الأندلس كانوا يقولون في معناه (معربض)، ونبه على ذلك محمد بن الحسن الزبيدي في كتابه لحن العوام ص ٢٩٦، ووجدت أغلب أهل لبنان يلفظون الضاد كأنه دال مفخّم، ووجدت في جرائدهم الاسم (درغام) وهي تريد (ضرغام).

ووجدت كثيراً ممن سواهم من أهل الشام ومصر يلفظون الضاد كأنه دال مفخّم. أما في العراق فيلفظون الضاد ظاءً إلا في كلمة واحدة يقلبون ضادها دالاً وذلك في قول العوام للطفل إذا أحدث ضوضاء (لا تْدُودِي) وهم يريدون (لا تُضَوْضِئ) أي لا تحدث الضوضاء. وأرى صلة بين الضاد والدال في قولنا (اغمض عينه) و(أغمد سيفه)، العين تستتر بجفنها والسيف يستتر بجفنه أي غمده. ومن التقارب بين كلمتين في المعنى وفي إحداهما دال وفي الأخرى ضاد قولنا (دَرْب). أنا أراه من (ضَرْب) بمعنى مضروب لأنه يُضرب في أثناء المشي والركض بالأقدام والحوافر وغيرها. ومن (فَعْل) بمعنى مفعول قول عبد الرحمن بن الأشعث:

قد كان في الموت له راحةٌ والموتُ حَتمْ في رقاب العبادْ

وحتم أي محتوم. وأيضاً قول الشاعر:

..... وأصبح هذا المال نَهْباً مُقَسّما

أي منهوباً ومقسوماً ومما يسند قولي في أصل (دَرْب) ما في معناه وهو (طريق) وإنما قيل له طريق لطرقه بالأقدام والحوافر وغيرها، فهو فعيل بمعنى مفعول كجريح بمعنى مجروح وحبيب بمعنى محبوب. وقولنا (نهد ثدياها) أراه كأنه من (نهض ثدياها) وهما المنتصبتان بخلاف المتدليتين، وقولنا (ضِرْس) للسن التي تسحق الطعام له صلة بـ(دَرْس) الأرُزّ والبُرّ وغيرهما؛ لأن هذا سحق وهذا سحق. وقولنا (حوض) كأنه من (حَدّ) أي (مَنْع)، قلب الدال الأول واواً فقيل (حَوْد)، وقلبُ أحد حرفي المضعّف واواً في اللغة معروف. ثم قيل (حوض) بقلب الدال ضاداً، كأنه أريد أن يحفظ الماء ويحدّه عن أن يسيل ويتبدّد، وأرى أن زمن التقارب والتداخل بين الضاد والدال هو أقدم مما نعرفه من زمن الجاهلية بأزمان،

والقصد منه توسيع اللغة مع تحاشي اللبس. ومن جهة اللبس أقول: لو قيل (ضَرْب) لم يُعْرَف أتعني انقطاعك عن المشي في طريقه أم انقطاعك عن ضربه على بدنه. لذلك وغيره آثروا أن يقولوا (دَرْب) بدلاً من (ضَرْب). على أننا لا نستطيع أن نجد صلة بين الدال والضاد في أغلب كلمهما، لأننا لا نعرف شيئاً عن نشأة اللغة ومعاني ألفاظها في أزمان سبقت ما نعرف من زمن الجاهلية، ونظير تحريف (بعض) إلى (بعد) في قول الجاحظ ما وجدته في قول رقية بنت عبد المطلب (البيان والتبيين ٤/٥٧):

أبنيّ إني رابني حجرٌ يغدو بكفك حيثما تغدو
وأخاف أن تلقى غويَّهم أو أن يصيبك بعدُ من يعدو

وموضع (بعدُ) في البيت الثاني ظاهر الضعف، وإنما (بعدُ) تحريف (بعضُ) فيكون معنى عجز البيت: أو أن يصيبك بأذى بعض المعتدين.

ومن تحريف الدال إلى ضاد، أي على عكس ما جرى لقول الجاحظ وقول رقية أن محقق الجزء السابع من تهذيب اللغة وجد في ص٤٧٨ أن (العضاد) في بعض أصول التحقيق حُرّفت إلى (العُضاض). وفي الحيوان (١١/٢) وجد المحقق في الأصول (الأضراس) فغيّرها إلى ادراص معتمداً على ما في ص ١٠. وفي البيان والتبيين وجد المحقق في ١٥٠/٤ أن (لا تدار) حُرّفت في بعض أصول التحقيق إلى (لا تضاري). وأرى أن نظير ذلك أيضاً تحريف (بعدُ) إلى (بعضَ) في قول القطامي:

قد يُدرك المتأني بعضَ حاجته وقد يكون مع المستعجل الزللُ

فصدر البيت بهذه الراوية – وهي الرواية الوحيدة في الكتب إلا كتاباً مخطوطاً سيأتي ذكره – ضعيف المعنى، فكيف يرجى لمن يتأنى في طلب حاجته أن يظفر بجزء منها؟ هذا قول قد يعدل الناس عن التأني في طلب الحاجة، أنّ (بعض) في البيت تحريف (بعدُ)، أي قد يظفر المتأني بعد تأنيّه بحاجته. وفي المخطوط من عيون الأخبار ج ٤ ورد صدر بيت القطامي على الصواب وهو (قد يدرك المتأني بعدُ حاجته)، ولا شك أنها رواية ابن قتيبة، ولكن المحقق أحمد زكي العدوي على وافر علمه حذف (بعدُ) وأثبت في مكانها (بعضَ) وقال:[كذا في ديوان القطامي وهي الرواية المشهورة في كتب الأدب، وفي الأصل: (قد يُدرك المتأني بعدُ حاجته) وهي رواية جيدة]. وكان حقاً عليه أن يثبتها في متن المطبوع ويعلق عليها بما يشاء. فإن كان القطامي قال في بيته كما في ديوانه المطبوع: (قد يدرك المتأني بعضَ حاجته) كان مخطئاً في قوله لما بيّنته. أما عجز بيته وهو (وقد يكون مع المستعجل الزللُ) فأخذه من المثل القائل: ربّ عجلة تهب ريثاً.

(٧) النسيم هو الأوكسجين

الحيوان (٦٤/٣) قال الجاحظ (ونسيم الهواء الذي يعيش به الطير لو دام على السمك ساعة من نهار لقتله). قلتُ: النسيم في قول الجاحظ وهو ما يقال له الآن (الأوكسجين). وقد استعمله القدماء في كلامهم وكتبهم دون أن يلتفت إليه مؤلفو المعاجم القدماء، ومن غير أن يفطن له أحد في العصور الحديثة. والجاحظ هو أقدم من وجدته يستعمله. وكنت كتبت إلى الأستاذ الدكتور حُسني سبح رحمه الله الرئيس السابق لمجمع اللغة العربية بدمشق أسأله عن تأريخ استعمالنا لفظة (أوكسجين) فتفضل عليّ بالكتابة إليّ قائلاً: (في النصف الثاني من القرن التاسع عشر عرّبته طائفة من العلماء من بعض اللغات الأوروبية إلى مولّد الحموضة، واستعمل كذلك في الكتب التركية التي تستكثر من الألفاظ العربية

ككتب مدرستي الطب العثمانيتين في استانبول ودمشق أيام السلطة العثمانية، وعرّبته طائفة أخرى إلى أوكسجين كما في كتاب أصول الكيمياء لفان ديك، طبعة الجامعة الأمريكية سنة ١٨٦٩، وكما في كشف الأسرار النورانية القرآنية المطبوع في دمشق سنة ١٢٧٩هـ). انتهى ما احتجت إليه من رسالة الدكتور حسني سبح وهي مؤرخة في ١٩٨٣/٥/١٨. وأضيف أن مولد الحموضة تُرك استعماله واقتُصِر على استعمال الأوكسجين وحده. وأضيف أيضاً أن النسيم بمعنى الأوكسجين لم يخطر ببال أولئك العلماء والمعرّبين. وغرضي من بحثي هذا أن أفرش معنى النسيم الذي هو الأوكسجين من الكتب القديمة في الأدب والطب وغيرهما لأعين القارئ على فهم النصوص التي ورد فيها وأن أميّزه من النسيم الذي هو في المعاجم بمعنى الريح التي تجيء بنفس ضعيف، وأن أضع بين أيدي مؤلفي المعاجم الحديثة ما قد يفيدهم في علمهم.

الدلائل على أن النسيم هو الأوكسجين:

أنا ذاكر ههنا نصوصاً قديمة يرد فيها النسيم بمعنى الأوكسجين، وأرجو القارئ أن يحذف من باله النسيم من بعض النصوص وأن يثبت في مكانه الأوكسجين ليسهل عليه تقبّله النسيم في معنى الأوكسجين لعدم اعتياده عليه بهذا المعنى الجديد.

أ- في الحيوان (١١٠/٥) قال الجاحظ (وللنسيم الذي فيه معنى آخر وهو الذي يجعله بعض الناس ترويحاً عن النفس ويعطيها البرد والرقة والطيب ويدفع النَّفَس ويُخرج البخار والغلظ والحرارات الفاضلة). قلتُ: قوله (وللنسيم الذي فيه معنى آخر) قد خلت المعاجم من ذكر المعنى الآخر وما هو إلا الأوكسجين.

ب- وفي كتاب المختارات في الطب ٦٧ لعلي بن أحمد البغدادي قال المؤلف في القوة الحيوانية: "وبها تتحرك الشرايين منبسطة ومنقبضة لنقض البخار الدخاني وجذب النسيم لترويح القلب والروح وتعديل جوهره" قلت: المراد بالنسيم الأوكسجين، والمراد بالبخار الدخاني ثاني أوكسيد الكربون.

ج- وفي الحيوان (٣٤٠/٤) قال إبراهيم بن سيّار النظّام في الجمر (ومتى أُطبق عليه شيء يحول بينه وبين النسيم خمد).

د- وفي رسائل إخوان الصفاء (٦٨/٢): (وأما سطح كرة النسيم مما يلي الأرض فتبيّن أنه متداخل في عمق الأرض إلى نهاية ما ثم يقف ولا يدخل أكثر من ذلك، ومن الدليل على ذلك ما يعرض لحافري المعادن إلى أسفل حتى أنهم ربما يحتاجون لترويح النسيم هناك بالمنافخ والأنابيب ليتنشقوا النسيم وتضيء سرجهم هناك. فمتى انقطع النسيم لعارض طفئت سُرُجهم واختنق من كان في المعادن فمات. ولا يمكن أن يكون في المواضع التي لا يخترقها النسيم حيوانات).

هـ- وفي عجائب المخلوقات للقزويني - المطبوع حاشية على حياة الحيوان ١٥٠/١- (وذكروا أن أكثر ما تكون كرة النسيم ست عشرة ألف ذراعاً ارتفاعاً وأقله ما يطابق سطح الأرض. فإن أعلى جبل على وجه الأرض لا يبلغ ارتفاعه هذا المبلغ ... وأما سطح كرة النسيم فإنه متداخل في عمق الأرض إلى نهاية ما ثم يقف. فإن النازلين إلى أسفل لطلب المعادن إذا احتاجوا إلى النسيم نفخوا- هكذا وأراها تحريف نُفِخ لهم- بالمنافخ والأنابيب ليتنشقوا النسيم ويضيء سراجهم. فإن النسيم متى انقطع انطفأ سراجهم واختنقوا).

و- وفي الأكليل للهمداني: (١٤٤/٨): (ومن ذلك خرق قلعة ضهر، وهو مستطيل جداً ... وقد دخله جماعة بالمصابيح والشمع ... فلما تغلغلوا

حصرت السُرُج في موضع انقطاع النسيم، ثم طفئت، وأخذ حاملوها بالكظم ثم نكصوا).

ز- وفي الفهرست لابن النديم ٤٤٩ طبعة ١٣٤٨هـ (قال ماني: وهي الآلهة الخمسة: النسيم والريح والنور والماء والنار ... والنسيم حياة العالم).

ح- وفي سمط الحقائق في عقائد الإسماعيلية ٤٤ لعلي بن حنظلة جاء في روح الإنسان عند ولادته:

ثـــم سَـــرَت بقـــدرة الحكـــيمِ إليـــه روح الحـــس والتســـنيمِ

و(التسنيم) بالتاء فالسين فالنون هو كذلك في المطبوع وليس فيه معنى يصلح للبيت. وعندي أنه تحرف (التنسيم) بالتاء فالنون فالسين. أي تنّشق النسيم الذي هو الأوكسجين، وقد سألت محقق الكتاب عباساً العزاوي – ونحن في خزانة الكتب الخاصة بجامع سليماني في استانبول سنة ١٩٦٨ عن معنى التسنيم في بيت الشعر المذكور، ففكّر شيئاً ثم تعثّر في جوابه. وبعد محاورة أقنعته بأنه تحريف (التنسيم) أي تنشّق النسيم الذي هو الأوكسجين، فوعدني بإصلاحه حين يعيد طبع الكتاب، ولكنّه توفي إلى رحمة الله بعد سُنيّات دون أن يتهيأ له إعادة طبعه.

فهذه شواهد للنسيم تدل على أنه الأوكسجين، وهي حقيقة أرى أن يقرها مجمع اللغة العربية في القاهرة، والرأي أن يُطبع في المعاجم الحديثة، وعلى حواشي المعاجم القديمة ما هذا معناه: (للنسيم معنى آخر، وهو أنه مادة الحياة التي لا يعيش الأحياء دونها. ويأخذه الأعم الأغلب من الأحياء من الهواء أو من الماء). ومن السهل اشتقاق اصطلاحات من الفعل (نَسَّمَ) لتحل محلّ الاصطلاحات الكثيرة المشتقة من الأوكسجين، وهي مما يمجّه الذوق كالأكسجة والمؤكسج.

(٨) قولهم (المقارنة) بمعنى (الموازنة)

الحيوان (٢/٢٦٤) قال الأستاذ المحقق (وانظر المقارنة بينهم وبين اليهود في العقد ١/٣٥٣). وقوله (المقارنة) ههنا وفي مواضع أُخَر من الكتاب بمعنى الموازنة غير فصيح. والمقارنة بين الأشياء هو الجمع بينها. وذلك كما في نهج البلاغة في الله تعالى (مقارن بين متباياتها، مقرّب بين متباعداتها) (٢/١٢٠) أو المصاحبة كقول الجاحظ (ومع السلامة من مجالسة البُغَضاء ومقارنة الأغبياء) (الحيوان ١/٥١).

فإذا أُريد معرفة التشابه والتضاد ونحو ذلك بين الأشياء استُعملت الموازنة أو المقابلة أو المقايسة أو غيرها، كقول الجاحظ في الحيوان (١/٣٦٦): (ولو أن الناس وازنوا بين خصال هذه القبائل خيرها وشرها لكانوا سواء). وكقوله فيه (١/٣٧٧): (لم يكايل خيرها وشرها لكانوا سواء). كقوله فيه (١/٣٧٧): (لم يكايل ولم يوازن ولم يعرف المقايسة ولا وقف على المقابلة)، وكقوله فيه (١/٣) (من الموازنة بينهما والحكم فيهما)، وكقوله فيه (٢/٩٨) (ولكنا إذا ميّلنا بين الفضيلة التي مع السرور وبين لذة الطعام) وهذه الشواهد ونظائرها هي في كتاب الحيوان، وكان يحسن من الأستاذ المحقق أن يستفيد في أثناء تحقيقه له. والمقارنة بهذا المعنى الخطأ استعملها كتاب عصريون أصابوا شهرة، ولهم كتب تقرأ ويُقتدى بلغتها، ففشا الخطأ في أكثر الألسنة وجرت به أكثر الأقلام. فمنهم الدكتور طه حسين. كقوله في كتاب الأيام ٣٤٦: (يتحدث عن اللغات السامية والمقارنة بينها وبين اللغة العربية). وكقوله في كتاب الأدب الجاهلي ١١٣ (والحق أنهم لو درسوا تأريخ هذه الأمم القديمة وقارنوا بينه وبين تأريخ العرب). ومنهم الأستاذ عباس محمود العقاد. كقوله في عبقرية المسيح ٩ (فيما ظهر لنا من المقارنة الطويلة التي بين الديانات). ومنهم الدكتور إبراهيم أنيس. قال في تقديمه لكتاب

الزينة لأبي حاتم الرازي ٥: (كأن تقارن الكلمة بنظائرها في الصورة والمعنى). ومنهم الدكتور شوقي ضيف. كقوله في (التطوّر والتجديد في الشعر الأموي ١٦): (ويتضح ذلك بالمقارنة بين هجائهم ومثالية القرآن في الهجاء)، هكذا، وعزوّه الهجاء إلى القرآن غير سائغ، ثم إن الهجاء مقصور على الشعر دون النثر، لذلك قال الفيروزآبادي في القاموس (هـ ج و): (هجاه هجواً وهجاءً شتمه بالشعر).

(٩) قولهم أمرٌ هام

الحيوان (٣٦٢/٢) قال الأستاذ المحقق: (وكانوا كذلك يفعلون في جلوسهم ولا ينقضونها إلاّ لأمر هام). وقوله (لأمر هام) الأولى فيه (لأمر مهمّ). و(همَّ) و(أهمَّ) وإن كانا بمعنى واحد فالاستقراء يدل أن الأعمّ الأغلب أن يستعمل اسم الفاعل من الرباعي وهو (مُهمّ) دون الثلاثي وهو (هام). فمن ذلك قولُ علي بن أبي طالب رضي الله عنه في عهد له كتبه للأشتر النخعيّ: (فإنك لا تُعذَر بتضييعك التافه لأحكامك الكثير المهمّ) (نهج البلاغة ١٠١/٣). وقولُ الجاحظ حكايةً عن بعضهم: (لقد أسهرتِ ليلي، وأرّقتِ عيني، وشَغَلتني عن مهمّ أمري) (الحيوان ١٧٠/١). وقولُه: (ولنقل الجنّ من الأخبار علم الناس بوفاة الملوك والأمور المهمة) (الحيوان ٢٠٣/٦). وقولُ عبد الله بن طاهر كما في زهر الآداب (١٩٨/٢- طبعة قديمة):

فقلت له نُعماك فيهم أتمَّها ودع أمرنا إنّ المهمَّ المقدَّمُ

ومن استعمال (مهمات) قول المسعودي في أبي جعفر المنصور:

(استعمل مواليه وغلمانه في أعماله، وصرفهم في مهمّاته، وقدّمهم على العرب) (مروج الذهب ٣١٢/٤). وقول البهاء زهير:

فيـا رسـولي إلـى مـن لا أبـوح بـه إنّ المهمّـات فيهـا يُعـرَف الرجـلُ

وممن حاد عن الأعم الأغلب فاستعمل (هامّة) من الأدباء العصريين الأستاذ أحمد أمين. قال: (إنه يكشف عن نواحٍ هامة من النواحي المجهولة) (مقدّمة الهوامل والشوامل ٦) والأَولى عن نواحٍ مهمة. والأُستاذ عبد الستار فرّاج، قال: (يشتمل على حلقة هامة في التأريخ) (مقدّمة تحفة الأمراء في تأريخ الوزراء- الصفحة ب)، والأَولى: عن نواحٍ مهمة. والأستاذ عباس محمود العقاد، قال: (وكان قران المشتري وزحل من الطوالع الهامّة) (عبقرية المسيح ٨٨) والأَولى : من الطوالع المهمة. وقد غبرتُ في العراق اقرأ الجرائد أكثر من أربعين سنة فأرى في كل جريدة عنواناً أو أكثر يقول: (إعلان هام) ولم أَرَ (إعلان مهم).

شفيلد: صبحي البصام